التَّفْسِيرُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ.

الْهِدَايَةُ أَنْوَاعٌ، وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنْ مَلَكَةٍ تَحْدُثُ فِي الْإِنْسَانِ وَفِي غَيْرِهِ مِنَ الْحَيَوَانِ، تُلْهِمُهُ الْمَنَافِعَ وَالْمَضَارَّ، بِقَدْرِ اسْتِعْدَادِهِ لِذَلِكَ وَهِيَ فِي الْإِنْسَانِ عَلَى شِقَّيْنِ، فَالشِّقُّ الْأَسْفَلُ مِنْهَا يَتَّصِلُ بِالْحَيَوَانِ وَالشِّقُّ الْأَعْلَى مِنْهَا يَتَّصِلُ بِمَلَائِكَةِ الرَّحْمَنِ، وَهُوَ الْمُرَادُ بِهِ. ثُمَّ إِنَّهُ فِي الْإِنْسَانِ عَلَى قِسْمَيْنِ أَيْضًا، فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَاهُ اللَّهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ زَادَهُمْ هُدًى، فَأَمَّا مَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ، بِأَنْ أَوْقَفَهُ عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، فَانْتَهَى بِهِ السَّيْرُ إِلَى جَنَّةِ النَّعِيمِ، فَقَدِ اهْتَدَى، وَأَمَّا مَنْ زَادَهُ هُدًى فَهُوَ الْمُشَارُ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ. ثُمَّ إِنَّ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ شَرِيعَةٍ نَبَوِيَّةٍ وَحُظَّةٍ سَمَاوِيَّةٍ وَهَذَا بِاعْتِبَارِ الْعِبَادَةِ الْعَمَلِيَّةِ، وَأَمَّا بِاعْتِبَارِ الْعِبَادَةِ الْعَقْلِيَّةِ أَوْ نَقُولُ الْإِعْتِقَادِيَّةِ فَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ حُظَّةٍ جَامِعَةٍ بَيْنَ طَرَفَيِ الْمُنَاقِضَيْنِ نَحْوَ الْإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ، فَهُوَ أَدَقُّ شَيْءٍ عَلَى الْإِدْرَاكِ، يَتَعَذَّرُ سُلُوكُهُ بِالْإِنْفِرَادِ مَعَ وُجُودِ الْإِسْتِعْدَادِ. فَالْوَاقِفُونَ عَلَيْهِ كَثِيرُونَ، وَالسَّائِرُونَ

عَلَيْهِ قَلِيلُونَ، وَالْوَاصِلُونَ أَقَلُّ.

لِسَانُ الرُّوحِ: سَأَلْتَ مَسْؤُولاً عَنْ صِرَاطِ الْعُقُولِ، فَأَجَابَ قَائِلاً: خُطَّةٌ رَقِيقَةٌ وَسِيمَةٌ دَقِيقَةٌ، مُتَحَذِّرَةُ السُّلُوكِ، كَثِيرَةُ الشُّكُوكِ، بَيْنَ جَبْرٍ وَاعْتِزَالٍ مَبْدَؤُهُ، وَتَنْزِيهٍ وَتَشْبِيهٍ وَسَطُهُ، وَجَبْرِيَّةٍ وَتَكْلِيفٍ غَايَتُهُ. فَالْمَيْلُ لِأَحَدِ الشِّقَّيْنِ مُضِرٌّ، وَالْجَمْعُ بَيْنَهُمَا مُتَعَذِّرٌ إِلَّا لِذِي الْجَنَاحَيْنِ الْمُسَمَّى بِوَاحِدٍ فِي اثْنَيْنِ. قُلْتُ عَزَّ الْمَنَالُ، وَنَدِمْتُ عَنِ السُّؤَالِ.

التَّفْسِيرُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ.

فَائِدَةُ الْإِتْيَانِ بِهَذِهِ الْجُمْلَةِ التَّنْصِيصُ عَنِ الصِّرَاطِ الْأَوَّلِ، لِأَنَّ الثَّانِي بَدَلٌ مِنْهُ، وَفِيهَا بَيَانٌ لِوَصْفِهِ بِالْإِضَافَةِ، وَتَحْذِيرٌ مِنَ الْمَيْلِ إِلَى أَحَدِ الشِّقَّيْنِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ. ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ مَنْ ضَلَّ عَنِ السَّبِيلِ أَقْرَبُ فِي الرُّجُوعِ إِلَيْهِ مِنَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِ، وَبَيَانُ ذَلِكَ أَنَّ مَنْ ضَلَّ عَنِ الصِّرَاطِ لَيْسَ بِمَغْضُوبٍ عَلَيْهِ، فَهُوَ فِي التِّيهِ، إِلَى أَنْ يَأْخُذَ اللَّهُ بِيَدِهِ. إِنَّمَا الْمَغْضُوبُ عَلَيْهِ مَنْ عَرَفَ الصِّرَاطَ وَلَمْ يَسْلُكْهُ

وَعَرَفَ الْحَقَّ حَقًّا وَلَمْ يَتَّبِعْهُ ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ نَسَبَ الضَّلَالَةَ لَهُمْ ، وَالْغَضَبَ لِنَفْسِهِ ، فَمَنْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ أَشَدُّ حَضْرَةً مِمَّنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَالْمُلْتَجَأُ لِلَّهِ مِنْهُمَا مَعًا .

الْإِسْتِنْبَاطُ : يُسْتَخْرَجُ مِنْ قَوْلِهِ الْحَمْدُ لِلَّهِ إِلَى قَوْلِهِ وَلَا الضَّالِّينَ إِثْنَا عَشَرَ حُكْمًا :

الْأَوَّلُ : عَلِمْنَا أَنَّهُ لَا شَيْءَ أَسْرَعُ مِنْ مَرْضَاةِ اللَّهِ مِنَ الْإِعْتِرَافِ لَهُ بِإِنْعَامِهِ مِنْ تَصْدِيرِهِ تَعَالَى بِجُمْلَةِ الْحَمْدِ فِي أَوَّلِ الْكِتَابِ .

الثَّانِي : عَلِمْنَا بِاعْتِرَافِهِ تَعَالَى لِعَبْدِهِ بِالْمَرْبُوبِيَّةِ وَإِنْ لَمْ يَعْتَرِفْ لَهُ الْعَبْدُ بِالرُّبُوبِيَّةِ مِنْ قَوْلِهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، حَيْثُ سَوَّى بَيْنَ أَفْرَادِ الْعَالَمِ عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ الْإِضَافَةُ .

الثَّالِثُ : عَلِمْنَا بِوُجُودِ عَوَالِمَ لَا تُحْصَى كَثْرَةً مِنْ ذِكْرِهِ لَهَا تَعَالَى بِصِيغَةِ الْجَمْعِ .

الرَّابِعُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ الْجَمَالِيَّةَ فِي نُعُوتِ الْأُلُوهِيَّةِ أَسْبَقُ مَكَانَةً مِنَ الْجَلَالِيَّةِ مِنْ تَقَدُّمِ الِاسْمَيْنِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ عَلَى غَيْرِهِمَا

مِنْ سَائِرِ الأَسْمَاءِ .

الخَامِسُ : عَلِمْنَا بِأَنَّهُ تَعَالَى لَا يَظْهَرُ فِي يَوْمِ الْجَزَاءِ إِلَّا بِصِفَةِ العَدْلِ لَا بِالْجَمَالِيَّةِ المَحْضِ ، وَلَا بِالْجَلَالِيَّةِ الْمَحْضِ مِنْ قَوْلِهِ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ .

السَّادِسُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ الإِسْلَامَ جَاءَ عَلَى شِقَّيْنِ ، تَحْقِيقاً وَتَشْرِيعاً مِنْ قَوْلِهِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ .

السَّابِعُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ الْحَقِيقَةَ لَا يَتَوَصَّلُ إِلَيْهَا السَّاعِي فِي الْغَالِبِ إِلَّا بَعْدَ مَا يَبْذُلُ جُهْدَهُ فِيمَا وَجَبَ عَلَيْهِ مِنْ تَقْدِيمِهِ تَعَالَى إِيَّاكَ نَعْبُدُ عَلَى إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ .

الثَّامِنُ : عَلِمْنَا بِمَطْلُوبِيَّةِ الْجَمَاعَةِ فِي الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ مِنْ إِتْيَانِهِ تَعَالَى بِضَمِيرِ الْجَمْعِ فِي قَوْلِهِ نَعْبُدُ ، لِأَنَّ المَقَامَ مَقَامُ تَذَلُّلٍ لَا يَصْلُحُ لِلْمُعَظِّمِ نَفْسَهُ .

التَّاسِعُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ الصَّلَاةَ شُرِعَتْ لِلْمُنَاجَاةِ مِنْ إِتْيَانِهِ تَعَالَى بِضَمِيرِ الْخِطَابِ مِنْ قَوْلِهِ : إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ، إِلَى آخِرِهِ .

العَاشِرُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ أَهَمَّ شَيْءٍ أُولِيَ بِالسُّؤَالِ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَسْأَلَهُ

الْعَبْدُ الْهِدَايَةَ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ .

الْحَادِي عَشَرَ : عَلِمْنَا بِأَنَّ الْحَقَّ يُرِيدُ مِنَّا رَفْعَ الْهِمَّةِ، بِأَنْ نَسْأَلَ مِنْهُ أَرْفَعَ الْمَنَازِلِ لَا أَدْنَاهَا، مِنْ قَوْلِهِ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ وَلَا شَكَّ أَنَّ مِنْهُمُ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءَ وَالصَّالِحِينَ .

الثَّانِي عَشَرَ : عَلِمْنَا بِأَنَّ الْمَغْضُوبَ عَلَيْهِمْ أَسْفَلُ دَرَكَةٍ مِنَ الضَّالِّينَ مِنَ التَّنْصِيصِ عَلَيْهِمْ أَوَّلًا .

الإِشَارَةُ : إِنَّ أَمْرَهُ تَعَالَى بِالسُّؤَالِ صِرَاطَ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ، فِيهِ تَشْجِيعٌ وَإِغْرَاءٌ عَلَى طَلَبِ الْمَنَازِلِ الْعَالِيَةِ ، وَدَلَالَةٌ عَلَى بَقَاءِ الْخُصُوصِيَّةِ ، وَعَلَى أَنَّهَا لَيْسَتْ وَقْفًا عَلَى مَنْ مَضَى مِنَ الْبَرِيَّةِ مَادَامَتْ هَذِهِ السُّورَةُ عَلَى الْأَلْسُنِ مَجْرِيَّةً . فَسُؤَالُ صِرَاطِ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ مَشْرُوعٌ ، وَالْوُصُولُ إِلَى غَايَتِهِ لَيْسَ بِمَمْنُوعٍ ، إِلَّا مَا كَنُبُوءَةِ النَّبِيِّ فَمَمْنُوعَةٌ ، وَأَمَّا وِلَايَتُهُ فَمَوْرُوثَةٌ .

التَّفْسِيرُ :

آمِين : هِيَ إِسْمُ فِعْلٍ ، وَمَعْنَاهَا اسْتَجِبْ . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَقَّنَنِي جِبْرِيلُ آمِينَ عِنْدَ فَرَاغِي مِنْ قِرَاءَةِ فَاتِحَةِ الْكِتَابِ، وَقَالَ إِنَّهُ كَالْخَتْمِ عَلَى الْكِتَابِ. وَعَنْ وَائِلِ بْنِ حَجَرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا قَرَأَ وَلَا الضَّالِّينَ قَالَ آمِينَ، وَرَفَعَ بِهَا صَوْتَهُ، وَلَيْسَتْ مِنَ الْقِرَاءَةِ اتِّفَاقًا. وَعَلَى هَذَا يَكُونُ الْإِتْيَانُ بِهَا عَقِبَ الْفَاتِحَةِ سُنَّةً، وَفِي عَدَمِ إِتْيَانِ الْإِمَامِ فِي الْجَهْرِيَّةِ خِلَافٌ وَفِيهِ نَظَرٌ، لِأَنَّ الْحَدِيثَ يَتَضَمَّنُ الْجَهْرَ.

الْإِشَارَةُ فِي عُمُومِ السُّورَةِ: إِنَّ افْتِتَاحَ الْفَاتِحَةِ بِالْإِسْمِ الشَّرِيفِ وَاخْتِتَامَهَا بِـ وَلَا الضَّالِّينَ لِذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ. جَاءَ الْإِسْمُ الْأَعْظَمُ عَلَى مِنَصَّتِهَا يُشِيرُ إِلَى اسْتِيلَائِهِ عَلَى عُرُوشِ حَقَائِقِهَا، حَقِّيَّةً أَوْ خَلْقِيَّةً، وَلَمَّا أَخَذَ الْحَظَّ الْأَكْمَلَ مِنَ الظُّهُورِ أَخَذَ فِي التَّدَلِّي وَالتَّنَزُّلِ، لِيَحُوزَ رُتْبَتَيِ الْبُطُونِ وَالظُّهُورِ، حَتَّى بَلَغَ مِنَ الْإِخْتِفَاءِ غَايَتَهُ، وَبِالْأُخَصِّ عِنْدَ التَّنَزُّلِ الْآخِرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ، فَكَادَ أَنْ لَا يُعْرَفَ، لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ جَاءَ فِي الْأَثَرِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْفَاتِحَةَ قُسِمَتْ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ، فَحَظُّ الْعُبُودِيَّةِ الشِّقُّ الْأَسْفَلُ مِنْهَا، وَلَمَّا كَانَتِ الرُّبُوبِيَّةُ مُقْتَضَى الظُّهُورِ،

وَالعُبُودِيَّةُ مُقْتَضَى البُطُونِ، جَاءَتْ أَسْمَاؤُهُ تَعَالَى فِي الشِّقِّ الأَعْلَى مِنْهَا مُظْهَرَاتٌ، وَهِيَ اللَّهُ وَالرَّبُّ وَالرَّحْمَنُ وَالرَّحِيمُ وَالمَلِكُ، فَهَذِهِ خَمْسَةٌ كُلُّهَا مُظْهَرَاتٌ، ثُمَّ ذَكَرَ نَفْسَهُ فِي الشِّقِّ الأَسْفَلِ مِنْهَا فِي خَمْسَةِ مَوَاضِعَ أَيْضًا كُلُّهَا مُضْمَرَاتٌ وَهِيَ: الكَافُ فِي قَوْلِهِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ، وَالكَافُ الثَّانِيَةُ مِنْ قَوْلِهِ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ وَضَمِيرُ الفَاعِلِ مِنْ قَوْلِهِ إِهْدِنَا، وَالتَّاءُ مِنْ قَوْلِهِ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ، وَالفَاعِلُ المَحْذُوفُ مِنْ قَوْلِهِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ، فَعَلَيْهِمْ مُرْتَفِعٌ عَلَى نِيَابَةِ الفَاعِلِ فَهَذِهِ خَمْسَةٌ مِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى، ذُكِرَتْ مُضْمَرَاتٍ، مُقَابِلَةً لِلْخَمْسَةِ المُظْهَرَاتِ، فَحَصَلَ التَّقَابُلُ، وَتَمَّ التَّعَادُلُ، فَاتَّضَحَ حِينَئِذٍ أَنَّهُ الظَّاهِرُ فِيمَا ظَهَرَ، وَالبَاطِنُ فِيمَا بَطَنَ، وَحَيْثُ مَا كَانَ، فَهُوَ اللَّهُ، وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ. ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ أَوَّلَ التَّنَزُّلَاتِ الْتَحَقَتْ بِالذَّاتِ صِفَةُ الرُّبُوبِيَّةِ، وَلِهَذَا ذُكِرَتْ بَعْدَ اسْمِ الذَّاتِ عَلَى البَدَلِيَّةِ، ثُمَّ الرَّحْمَانِيَّةُ لِلُزُومِ الِاسْتِوَاءِ. الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى، فَبِمُوجَبِ ذِكْرِ العَالَمِينَ تَعَيَّنَ الِاسْتِوَاءُ. ثُمَّ الرَّحِيمِيَّةُ فِيمَا بَيْنَ المُسْتَوَى عَلَيْهِ، وَهِيَ دَاعِيَةُ الِائْتِلَافِ، ثُمَّ المُلْكِيَّةُ لِلْفَصْلِ إِنْ كَانَ خِلَافٌ، وَلَمَّا وَصَلَتِ الرُّبُوبِيَّةُ إِلَى

هَذِهِ الغَايَةِ فِي التَّنَزُّلِ، وَهُوَ الفَصْلُ فِيمَا بَيْنَ العِبَادِ، وَلَوْلَا هَذَا التَّنَزُّلُ الآخِرُ لَمَا تَعَلَّقَتْ بِهَا العُبُودِيَّةُ قَائِلَةً: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ، وَلَمَّا صَحَّ الإِلْتِجَاءُ، وَاتَّضَحَتِ المَحَجَّةُ ذَكَرَ نَفْسَهُ تَعَالَى مُضْمَرًا، أَدَاءً لِوَاجِبِ البُطُونِ، غَيْرَ أَنَّهُ مُصَدَّرٌ أَوَّلَ الخِطَابِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ، ثُمَّ أَخَذَ فِي الإِضْمَارِ، وَتَأَخَّرَ عَنْ صَدَرَاتِ الكَلَامِ فِي الفِعْلِ مِنْ إِهْدِنَا، وَالتَّاءُ مِنْ أَنْعَمْتَ، ثُمَّ اخْتَفَى البَتَّةَ فِي المَغْضُوبِ، لَا نُونًا وَلَا تَاءً، لَكِنْ مَعَ بَقَاءِ الفَاعِلِيَّةِ بَعْدَ التَّقْدِيرِ، ثُمَّ تَجَرَّدَ عَنِ الضَّالِّينَ، فَمَعَ كَوْنِهِمْ مَفْعُولِينَ صَيَّرَهُمْ فَاعِلِينَ، فَهَذَا هُوَ حَدُّ الخَفَا، وَهَذَا الظُّهُورُ لِأَهْلِ الصَّفَا.

لِسَانُ الرُّوحِ: يَسْتَبْعِدُ أَنْ يَرَى أَوَّلَ جُزْءٍ مِنَ الفَاتِحَةِ أَيِ الحَمْدُ مُجَرَّدًا عَمَّا بَعْدَهُ، بَلْ يَرَاهَا بِمَا فِيهَا لِلَّهِ، وَإِلَّا لَمْ يَكُنِ الحَمْدُ لِلَّهِ، لِأَنَّ الحَمْدَ إِسْمٌ لِجَمِيعِ السُّورَةِ، وَهُوَ لِلَّهِ.

سُورَةُ البَقَرَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الٓمٓ. لَاحَظْ لِتَفْسِيرٍ فِي ذَلِكَ، إِلَّا مُجَرَّدَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ.

الإِشَارَةُ : تُفِيدُنَا أَنَّ الأَلِفَ مِنْ إِسْمِ اللَّهِ ، وَاللَّامَ مِنْ جِبْرِيلَ وَالمِيمَ مِنْ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَإِذَا وَصَلْتَ الحُرُوفَ بِبَعْضِهَا جَاءَتْكَ الإِشَارَةُ قَائِلَةً : أَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ الحَقُّ بَلَى اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الكِتَابَ إِلَى مُحَمَّدٍ بِوَاسِطَةِ جِبْرِيلَ لَا زَائِدٌ عَلَى مَا بِهِ الإِشَارَةُ . كَانَ القُرْآنُ مُتَعَلِّقًا بِالأَلِفِ ، ثُمَّ اتَّحَدَ مَعَ اللَّامِ ، ثُمَّ اسْتَجْمَعَ فِي دَائِرَةِ المِيمِ . وَمِنَ المَعْلُومِ أَنَّ الكِتَابَ مُتَوَاصِلٌ مِنَ اللَّهِ إِلَى جِبْرِيلَ إِلَى مُحَمَّدٍ ، وَوَجْهُ اخْتِصَاصِ الأَلِفِ بِإِشَارَتِهِ لِلأُلُوهِيَّةِ لِاسْتِقَامَتِهِ وَكَوْنِهِ أَوَّلَ الحُرُوفِ الهِجَائِيَّةِ وَآخِرُهَا هَمْزَةً ، وَظَهَرَ فِي الحُرُوفِ لِأَنَّهَا مَأْخُوذَةٌ مِنْ مَسَاحَتِهِ ، فَمَا الحَاءُ إِلَّا أَلِفٌ مَحْدُودِبٌ ، وَالمِيمُ أَلِفٌ مُسْتَدِيرٌ وَبَاطِنٌ فِيهَا مِنْ جِهَةِ كَوْنِهِ لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ فِي دَائِرَةِ المِيمِ مَثَلًا ، وَاللَّامُ يُشِيرُ إِلَى جِبْرِيلَ لِقُرْبِهِ مِنَ الأَلِفِ مِنْ جِهَةِ الصُّورَةِ لَا مِنْ جِهَةِ الجَرِّ وَالِانْعِطَافِ ، وَالمِيمُ تُشِيرُ إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِانْتِهَائِهِ فِي دَائِرَةِ العُبُودِيَّةِ ، فَهُوَ العَبْدُ عَلَى الحَقِيقَةِ فَبِانْعِطَافِهِ انْتَهَى أَوَّلُهُ فِي آخِرِهِ غَايَةً فِي الِاسْتِعْدَادِ ، إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ القُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ .

التَّفْسِيرُ : قَوْلُهُ تَعَالَى : **ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ .**

قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ أَهَمَّ شَيْءٍ نَعْتَبِرُهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِذَا تَنَاوَلْنَاهُ أَنْ نَرَاهُ وَاصِلاً إِلَيْنَا مِنْ حَضْرَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى تِلْكَ الْهَيْئَةِ بَيْنَ دَفَّتَيِ الْمُصْحَفِ حَتَّى إِذَا تَنَاوَلَهُ الْإِنْسَانُ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ يَجِدُ عَلَى عُنْوَانِهِ ذَلِكَ الْكِتَابُ الْمُتَنَاوَلُ لَا رَيْبَ فِيهِ فِي كَوْنِهِ وَاصِلاً مِنَ اللَّهِ وَلَا شَكَّ فِي جَمِيعِ مَا تَضَمَّنَهُ ، وَالَّذِي يُشْعِرُكَ بِكَوْنِهِ مَبْعُوثًا إِلَيْنَا بِالْخُصُوصِ لَا لِمَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ هُوَ قَوْلُهُ هُدًى ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنَ الْمَسِيحِيِّينَ مِمَّنْ يَقُولُ بِنُبُوءَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ بَقَائِهَا عَلَى النَّصْرَانِيَّةِ . إِنَّ الْإِشَارَةَ فِي قَوْلِهِ ذَلِكَ الْكِتَابُ عَائِدَةٌ عَلَى الْإِنْجِيلِ ، وَقَوْلُهُ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ رَاجِعٌ لِلنَّصَارَى ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى ، إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ، رَاجِعٌ لِلْيَهُودِ . وَأَمَّا الْمُسْلِمُونَ فَهُمُ الْمُشَارُ إِلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ : وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ، وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ... الخ . غَيْرَ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ لَمْ يَقُلْ بِهِ وَلَوْ وَاحِدٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ فِيمَا بَلَغَنَا .

لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ. فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الْكِتَابَ مَبْعُوثٌ لِمَنْ سَبَقَ لَهُ عَهْدٌ مَعَ اللَّهِ، حَيْثُ كَانَ يُؤْمِنُ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ، فَدَخَلْنَا بِهَذَا الِاعْتِبَارِ مَعَ كُلِّ مَنْ سَبَقَ لَهُ عَهْدٌ مَعَ اللَّهِ، لَا فَرْقَ بَيْنَ مَنْ تَقَدَّمَ وَبَيْنَ مَنْ تَأَخَّرَ، وَأَمَّا الْجَاحِدُ فَغَيْرُ مُنْتَهِيٍّ لِبَعْثَةِ الْكِتَابِ، إِنَّمَا هُوَ مُنْتَهِيٌّ لِنُزُولِ الْحَدِيدِ الَّذِي فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ، وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَقْسَامِ التَّبْلِيغِ أَيْضًا، ثُمَّ أَنَّهُ سَبَقَ فِي عِلْمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَبْعَثَ كِتَابًا لِمَنْ أَهَلَّهُمْ فِي سَابِقِ عِلْمِهِ لِذَلِكَ وَأَنْ يَكُونُوا حُجَّةً إِلَى مُنْتَهَى الزَّمَانِ. فَمَنْ فَاتَتْهُ مُعْجِزَةُ النَّبِيِّ لَمْ تَفُتْهُ مُعْجِزَةُ الْقُرْآنِ، لِأَنَّهُ دَلَّ بِنَفْسِهِ عَلَى أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ لَا بِشَهَادَةِ الْغَيْرِ لِمَا حَوَاهُ مِنَ الْإِعْجَازِ لَفْظًا وَمَعْنًى، وَخُرُوجِ نِظَامِهِ عَمَّا فِي طَوْقِ الْبَشَرِ، بِخِلَافِ غَيْرِهِ مِنَ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ فَإِنَّهَا تَتَوَقَّفُ صِحَّةُ نِسْبَتِهَا لِلَّهِ عَلَى شَهَادَةِ شَاهِدٍ صَادِقٍ فَمَنْ نَظَرَ الْقُرْآنَ بِعَيْنِ الْإِنْصَافِ، وَتَأَمَّلَهُ بِفُؤَادِ الْإِعْتِرَافِ يَعْلَمُ بِالضَّرُورَةِ أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ، وَقَدْ كُنْتُ اجْتَمَعْتُ فِي سِيَاحَةٍ مَعَ بَعْضِ أَحْبَارِ

الْيَهُودِ ، فَتَكَلَّمْنَا فِي التَّوْرَاةِ وَنِظَامِهِ ، ثُمَّ تَكَلَّمْنَا فِي الْقُرْآنِ وَأُسْلُوبِهِ وَكَانَ لَهُ حِفْظٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ، فَقُلْتُ لَهُ : أُتْلُ شَيْئًا مِنْهُ ، وَرَتِّلْهُ تَرْتِيلًا فَاسْتَفْتَحَ سُورَةَ الرَّحْمَنِ ، وَكَانَ كُلَّمَا مَرَّ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ تَأَمَّلَ مَا قَبْلَهُ ، فَلَمْ يَبْلُغْ رُبُعَ السُّورَةِ حَتَّى تَلَأْلَأَ وَجْهُهُ عَرَقًا ، وَقَالَ : أَشْهَدُ أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ ، ثُمَّ نَطَقَ بِالشَّهَادَتَيْنِ وَاعْتَرَفَ بِالْإِسْلَامِ ، فَافْتَرَقْنَا عَلَى هَذَا الْعَهْدِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَرَاءَ ذَلِكَ .

الْإِسْتِنْبَاطُ : يُسْتَخْرَجُ مِنْ قَوْلِهِ الٓمٓ إِلَى قَوْلِهِ لِلْمُتَّقِينَ ثَمَانِيَةُ أَحْكَامٍ :

الْأَوَّلُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ الْحُرُوفَ الْمُقَطَّعَةَ الْمُؤْتَى بِهَا فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ لَا تَخْلُو عَنْ مَعَانٍ ، وَإِلَّا لَمَا أُتِيَ بِهَا .

الثَّانِي : عَلِمْنَا بِأَنَّ اللُّغَزَ الْمُسْتَعْمَلَ عِنْدَ الْقَوْمِ فِيمَا اصْطَلَحُوا عَلَيْهِ مَشْرُوعٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنْ قَوْلِهِ الٓمٓ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ مَعَانِيَهَا لَيْسَتْ مُتَعَاطِيَةً لِلْعُمُومِ .

الثَّالِثُ : عَلِمْنَا بِكَمَالِ اعْتِنَائِهِ تَعَالَى بِأَهْلِ خُصُوصِيَّتِهِ ، حَيْثُ صَدَّرَ فِي الْكِتَابِ بِمَشْرَبٍ قَدْ تَنْبُو عَنْهُ أَكْثَرُ الْمَشَارِبِ .

الرَّابِعُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْمُصْحَفَ كَانَ مُتَهَيِّئًا فِي عِلْمِ اللَّهِ عَلَى الْحَالَةِ الْحَاضِرَةِ فِي صَدْرِهِ الٓمٓ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ، وَإِلَّا لَمَا عَادَتِ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ.

الْخَامِسُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْكِتَابَ الْعَزِيزَ هُوَ صَالِحٌ فِي نَفْسِهِ أَنْ يُؤَثِّرَ فِيمَنْ سَبَقَ لَهُ عَهْدٌ مَعَ اللَّهِ وَإِنْ بِدُونِ مُبَلِّغٍ مَهْمَا وَصَلَ إِلَيْهِ، وَأَمَّا تَأْثِيرُهُ فِي الْجَاحِدِ لَا بُدَّ أَنْ يُوَازِرَهُ فِيهِ مُبَلِّغٌ مِنْ قَوْلِهِ: هُدًى لِلْمُتَّقِينَ.

السَّادِسُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْكِتَابَ فَارِغٌ مِنْ كُلِّ حَشْوٍ وَزِيَادَةٍ، فَضْلًا عَنِ الشَّكِّ فِيمَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ قَوْلِهِ: لَا رَيْبَ فِيهِ.

السَّابِعُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْإِيمَانَ التَّفْوِيضِي كَأَنْ يَتَلَقَّى الْإِنْسَانُ مَا فِي كِتَابِ اللَّهِ عَلَى مُرَادِ اللَّهِ هُوَ مِمَّا يُمْدَحُ بِهِ مِنْ قَوْلِهِ: الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ.

الثَّامِنُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ التَّقْوَى لَا تَصِحُّ مِنْ صَاحِبِهَا إِلَّا بِعَمَلِ الْجَوَارِحِ، قَالَ تَعَالَى وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ، وَمِنْ جُمْلَةِ ذَٰلِكَ إِقَامُ الصَّلَاةِ لِلَّهِ وَالْإِنْفَاقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مِنْ قَوْلِهِ فِي تَعْرِيفِ الْمُتَّقِينَ: وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ. زِيَادَةً عَلَى الْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ.

الإشارة: إنَّ الكِتَابَ المُشَارَ لَهُ بِذَلِكَ عِبَارَةٌ عَمَّا ظَهَرَ مِنَ الْكَائِنَاتِ رَاجِعٌ لِلْعَالَمِ بِأَجْمَعِهِ، جَوْهَرِهِ وَعَرَضِهِ، لارَيْبَ فِيهِ أَيْ لاشَكَّ فِيهِ، إنَّهُ مُتَنَزِّلٌ مِنَ الحَضْرَةِ الأَقْدَسِيَّةِ وَشُعَاعِ الأُلُوهِيَّةِ، وَاتِّصَالُ الْكِتَابِ بِالْمِيمِ يُشِيرُ بِتَدَفُّقِهِ مِنْ دَائِرَتِهَا عِبَارَةٌ عَنِ الْقَبْضَةِ النُّورَانِيَّةِ وَالْحَضْرَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ فَالْكَوْنُ بِمَا فِيهِ نُورَانِيُّ الْحَقِيقَةِ بِكُلِّ اعْتِبَارٍ، عَرَفْتَ أَمْ لَمْ تَعْرِفْ، وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وما بينهما إِلَّا بِالْحَقِّ، شَاهَدْتَ أَمْ لَمْ تُشَاهِدْ، وَمَنْ لَمْ يَرَهُ مِنَ الْحَقِّ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ، فَقَدْ أَعْوَزَهُ وُجُودُ الأَنْوَارِ، وَحُجِبَتْ عَنْهُ شُمُوسُ الْمَعَارِفِ بِسَحَابِ الآثَارِ، فَوَجْهُ إِطْلاقِ الْكِتَابِ عَلَيْهِ مِنْ حَيْثُ الإِشَارَةِ لِمُنَاسَبَتِهِ مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ، فَمِنْهَا أَنَّ الْكِتَابَ قَالَ فِيهِ تَعَالَى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾. وَقَالَ فِي الْكَوْنِ: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ وَالْكِتَابُ مُوَصِّلٌ إِلَى اللَّهِ بِالْمَقَالِ، وَالْكَوْنُ مُوَصِّلٌ بِالإِسْتِدْلالِ، وَالْكِتَابُ فِيهِ مِنْ ذِكْرِ أَسْمَائِهِ تَعَالَى وَصِفَاتِهِ، وَفِي الْكَوْنِ مِنْ ظُهُورِ أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ وَآثَارِهِ، وَأَنَّ الْكِتَابَ لَنْ تَزَالَ حَقِيقَتُهُ مُسْتَتِرَةً إِلَّا عِنْدَ الْخُصُوصِ مِنْ جِهَةِ الْحُدُوثِ وَالْقِدَمِ، وَمَا هِيَ حَقِيقَةُ النُّزُولِ بِاعْتِبَارِ صِيغَةِ الْكَلامِ

وَكَذَلِكَ الْكَوْنُ بِاعْتِبَارِ قِيَمِيَّاتِهِ، وَتَعَرُّفِهِ بِالْحَدِّ هَلْ هُوَ ذَلِكَ الْمَرْئِيُّ، أَمْ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ. وَكَمَا أَنَّ الْكِتَابَ مُتَأَلِّفٌ مِنْ حُرُوفٍ وَأَلْفَاظٍ لَيْسَتْ مَقْصُودَةً بِالذَّاتِ فَكَذَلِكَ الْكَوْنُ مُتَأَلِّفٌ مِنْ جَوَاهِرَ وَأَعْرَاضٍ تُومِي لِمَا فِيهَا. قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ، وَكَمَا أَنَّ الْكِتَابَ تَنَزَّلَ مِنْ حَضْرَةِ الْعِلْمِ إِلَى حَضْرَةِ الْقَوْلِ، فَكَذَلِكَ الْكَوْنُ تَنَزَّلَ مِنْ حَضْرَةِ الْعِلْمِ إِلَى حَضْرَةِ الْفِعْلِ، وَكَمَا أَنَّ الْكِتَابَ حَوَى مِنْ ذِكْرِ الْعُلْوِيَّاتِ وَالسُّفْلِيَّاتِ وَالدُّنْيَوِيَّاتِ وَالْأُخْرَوِيَّاتِ وَالْإِثْمِ وَالطَّاعَةِ، وَالْأُلُوهِيَّاتِ وَالْفِرْعَوْنِيَّاتِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، فَكَذَلِكَ الْكَوْنُ حَوَى مِثْلَ ذَلِكَ، سَوَاءً بِسَوَاءٍ، وَكَمَا أَنَّ الْكِتَابَ بِجَمِيعِ مَا فِيهِ مِمَّا تَقَدَّمَ يُتَعَبَّدُ بِتِلَاوَتِهِ، وَكَيْفَمَا كَانَ اللَّفْظُ عَلَى اخْتِلَافِ مَدْلُولِهِ، لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ، وَهَذَا عِنْدَ مَنْ نَظَرَ اللَّفْظَ الْمُجَرَّدَ كَوْنَهُ كَلَامَ اللَّهِ، وَكَذَلِكَ الْكَوْنُ بِجَمِيعِ أَجْزَائِهِ عِنْدَ مَنْ نَظَرَهُ فِعْلًا لِلَّهِ، أَوْ نَقُولُ مِنْ نُورِ اللَّهِ، وَكَمَا أَنَّ الْكِتَابَ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا، وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا، فَكَذَلِكَ الْكَوْنُ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا، وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقُونَ، وَلَا يَهْدِي بِهِ إِلَّا الْمُتَّقُونَ.

لِسَانُ الرُّوحِ: الٓمٓ مُبْتَدَأٌ، خَبَرُهُ ذَلِكَ الْكِتَابُ الَّذِي هُوَ الْمُطَهَّرُ

بِأَجْمَعِهِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَا زَائِدَ عَلَيْهِ: فَمِيمُهُ مُلْكٌ، وَلَامُهُ مَلَكُوتٌ وَأَلِفُهُ جَبَرُوتٌ، فَالْمِيمُ مَجَالِي الظَّوَاهِرِ، وَاللَّامُ غَيْبُ السَّرَائِرِ، وَالْأَلِفُ بَيْنَهُمَا ظَاهِرٌ اتَّصَلَتِ الْمِيمُ بِاللَّامِ لِوُجُودِ الِالْتِزَامِ مِنْ حَيْثُ الْمَكَانِ وَالتَّكْلِيفِ، وَانْفَصَلَتِ الْأَلِفُ مِنْ حَيْثُ الْمَكَانَةِ وَالتَّعْرِيفِ، وَبِهَذَا التَّقْرِيرِ يُسْتَغْنَى عَنْ كَثْرَةِ الْكَلَامِ، وَتَكُونُ الْمِيمُ خَبَرًا عَنِ اللَّامِ، وَكِلَاهُمَا خَبَرٌ عَنِ الْأَلِفِ، وَاتَّحَدَتْ حُرِّيَّةٌ وَتَكْلِيفٌ، بُطُونٌ وَظُهُورٌ، وَإِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ.

التَّفْسِيرُ: قَوْلُهُ تَعَالَى:

وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ.

فَلَمَّا ذَكَرَ الصِّنْفَ الْأَوَّلَ وَهُوَ الْمَبْعُوثُ الْكِتَابُ مِنْ أَجْلِهِ ذَكَرَ الصِّنْفَ الثَّانِي، وَهُوَ عِبَارَةٌ عَمَّنْ اجْتَمَعَ بِالرَّسُولِ، فَتَلَقَّى مِنْهُ الْإِيمَانَ دُونَ مَا يَشْتَرِطُ عَلَيْهِ شَيْئًا، فَذَكَرَ أَنَّ هَؤُلَاءِ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ، مَحْمُولُونَ وَفِي سَابِقِ عِلْمِهِ مُفْلِحُونَ، وَلِاعْتِنَائِهِ تَعَالَى بِهِمْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ، فَتَلَقِّي الْإِيمَانِ مِنَ الرَّسُولِ أَبْلَغُ فِي الرُّسُوخِ مِنْ تَلَقِّيهِ مِنَ الْكِتَابِ، وَأَهْلُهُ أَعْظَمُ حُرْمَةً عِنْدَ

اللَّهِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، فَمَنْ كَانَ الرَّسُولُ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ أَكْرَمُ مِمَّنْ بَقِيَ الْكِتَابُ فِي أَيْدِيهِمْ ، وَإِنْ كَانَ كُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى . فَالزَّيْغُ يَحْتَمِلُ مَعَ الْكِتَابِ وَلَنْ يَحْتَمِلَ مَعَ الرَّسُولِ ، وَمِنْ هُنَا شَهَادَةُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى قَوْمِهِ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ، أَيْ لَمْ نَدْرِ مَا فَعَلُوهُ فِي كِتَابِي .

الإِسْتِنْبَاطُ: يُسْتَخْرَجُ مِنْ قَوْلِهِ: وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ إِلَى قَوْلِهِ الْمُفْلِحُونَ سَبْعَةُ أَحْكَامٍ :

الأَوَّلُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الصِّنْفَ الْمَمْدُوحَ الْآنَ هُوَ غَيْرُ الصِّنْفِ الْأَوَّلِ وَإِنْ أَجْمَلَهُمَا الْوَصْفُ بِالْإِيمَانِ عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ الْمُغَايَرَةُ بَيْنَ الْمَعْطُوفِ وَالْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ .

الثَّانِي: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْمَمْدُوحِينَ أَوَّلًا هُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ ، وَبِهَذَا يَلْزَمُ جَوَازُ وَصْفِهِمْ بِالْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى وَالْإِنْفَاقِ وَإِقَامَةِ الصَّلَاةِ إِلَى حَالِ بَعْثَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ ذِكْرِهِ لَهُمْ تَعَالَى بِذَلِكَ .

الثَّالِثُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ التَّقْوَى لَيْسَتْ هِيَ نَفْسَ الْهِدَايَةِ الْخَاصَّةِ ، إِنَّمَا هِيَ مِنَ

الأَسْبَابِ المُوصِلَةِ لَهَا، وَإِلَّا لَمَا كَانَ الكِتَابُ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ .

الرَّابِعُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ المُوقِنِينَ هُمُ المُهْتَدُونَ حَقِيقَةً، وَأَمَّا المُؤْمِنُونَ فَهُمْ سَائِرُونَ فِي سَبِيلِ الهِدَايَةِ مِنْ وَصْفِهِ تَعَالَى الأَوَّلِينَ بِالإِيمَانِ وَتَخْصِيصِهِ الآخَرِينَ بِمَزِيدِ الإِيقَانِ، وَبَعْدُ قَالَ: أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ.

الخَامِسُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ كَانَ أَكْثَرُهُمْ عَلَى دَرَجَةِ الإِيقَانِ، وَلِهَذَا ذَكَرَهُمْ بِهِ، وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ .

السَّادِسُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ أَعْمَالَ القَلْبِ هِيَ أَشْرَفُ مِنْ أَعْمَالِ الجَوَارِحِ، وَإِنَّهُ يُسْتَغْنَى بِذِكْرِهَا فِي المَدْحِ عَمَّنْ سِوَاهَا مَهْمَا تَحَقَّقَتْ فِي شَخْصٍ مِنْ وَصْفِهِ تَعَالَى أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ بِالإِيقَانِ، قَاطِعًا النَّظَرَ عَنِ الإِنْفَاقِ وَإِقَامَةِ الصَّلَاةِ حَسْبَ ذِكْرِهِ فِي الأَوَّلِينَ مَعَ تَحَقُّقِ الِاشْتِرَاكِ بَيْنَهُمْ.

السَّابِعُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الصَّحَابَةَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مِنْ أَهْلِ الشُّهُودِ وَالعِيَانِ، كَمَا أَنَّهُمْ أَهْلُ إِيقَانٍ فِي الأُخْرَوِيَّاتِ، وَأَهْلُ إِيمَانٍ فِيمَا هُوَ كَالوَقَائِعِ الغَابِرَةِ وَالأَحْكَامِ السَّالِفَةِ، وَذَلِكَ يُسْتَفَادُ مِنْ ذِكْرِهِ تَعَالَى إِيمَانَهُمْ مُنْفَصِلًا، ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُمْ بِالآخِرَةِ يُوقِنُونَ، وَلَمَّا لَمْ يَذْكُرْ عَقِيدَتَهُمْ فِي الإِلَهِ

عَلِمْنَا أَنَّهُمْ عَلَى شُهُودٍ وَعِيَانٍ، وَإِلَّا لَزِمَ أَنْ يَكُونَ وُجُودُ الآخِرَةِ أَوْضَحَ مِنْ وُجُودِهِ تَعَالَى عِنْدَهُمْ لَا يَدْخُلُ فِي الإِيمَانِ بِالْغَيْبِ.

الإِشَارَةُ: فِي قَوْلِهِ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ تَرَى التَّفْخِيمَ عَائِدًا عَلَى مَنْ آمَنَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى النَّبِيِّ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ مِنَ الْعُلُومِ الْمَكْتُومَةِ إِلَّا عَلَى أَهْلِهَا، وَهَذَا هُوَ وَجْهُ التَّخْصِيصِ، وَإِلَّا فَمَا فَائِدَةُ التَّخْصِيصِ لِأَنَّ الْحُكْمَ الْعَامَّ نَزَلَ عَلَيْهِمْ كَمَا نَزَلَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَنَّ الإِيمَانَ بِسِرِّ الْخُصُوصِيَّةِ هُوَ مِنْ أَعْلَى دَرَجَةٍ فِي الَّذِي عَزَمْنَا لَهَا لِلْعُمُومِ، وَلِهَذَا قَالَ فِي الصَّحَابَةِ: أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. وَقَدْ أَشَارَتْ أَقْوَالُ الأَكَابِرِ بِمِثْلِ ذَلِكَ. قَالَ بَعْضُهُمْ: مَنْ صَدَّقَ بِهَذَا الْعِلْمِ يَعْنِي بِهِ مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فَهُوَ مِنَ الْخَاصَّةِ، وَمَنْ فَهِمَهُ فَهُوَ مِنْ خَاصَّةِ الْخَاصَّةِ، وَمَنْ عَبَّرَ عَنْهُ وَتَكَلَّمَ فِيهِ فَهُوَ النَّجْمُ الَّذِي لَا يُدْرَكُ، وَالْبَحْرُ الَّذِي لَا يُتْرَكُ، وَبِالْجُمْلَةِ إِنَّ الإِيمَانَ بِذَلِكَ يَعْتَبِرُونَهُ كَالرُّكْنِ فِي الدِّينِ، حَتَّى قَالَ بَعْضُهُمْ: مَنْ لَيْسَ لَهُ نَصِيبٌ مِنْ عِلْمِ الْقَوْمِ يُخْشَى عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ الْخَاتِمَةِ، وَأَقَلُّ نَصِيبٍ مِنْهُ التَّصْدِيقُ بِأَهْلِهِ، وَمَنْ فَاتَتْهُ الْهِمَّةُ فِي نَفْسِهِ فَلَا تَفُوتُهُ أَنْ يُصَدِّقَ بِهَا غَيْرَهُ.

لِسَانُ الرُّوحِ : فِي مَعْنَى الإِهْتِدَاءِ يَقُولُ : مِنَ النَّاسِ مَنْ هُوَ سَائِرٌ فِي سَبِيلِ الْهِدَايَةِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ فِي نَفْسِ الْهِدَايَةِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ عَلَى هُدًى ، فَإِذَا حَصَلَ لَهُ الإِسْتِعْلَاءُ عَلَيْهَا فَمَا يَبْقَى لَهُ إِلَّا التَّجَاوُزُ ، فَتَصِيرُ الْهِدَايَةُ تَطْلُبُهُ ، كَمَا يَطْلُبُهُ الضَّلَالُ ، وَكِلَاهُمَا فِي حَقِّهِ مُحَالٌ .

التَّفْسِيرُ : وَلَمَّا أَنْهَى الْكَلَامَ عَلَى الصِّنْفَيْنِ الأَوَّلَيْنِ ذَكَرَ الصِّنْفَ الثَّالِثَ الَّذِي هُوَ أَبْعَدُ مِنْ أَنْ يُرْسَلَ إِلَيْهِ كِتَابٌ لِبُعْدِ تَأَهُّلِهِ لِلْخِطَابِ فَقَالَ :

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ

أَيْ لَيْسُوا مُسْتَعِدِّينَ لِذَلِكَ . فَإِنْذَارُكَ وَعَدَمُهُ عَلَى السَّوَاءِ ، وَمِنْ هُنَا يَتَّضِحُ أَنَّ الْكِتَابَ مَبْعُوثٌ لِمَنْ سَبَقَتْ لَهُ صِلَةٌ مَعَ اللَّهِ ، فَهُوَ عَلَى كُلِّ حَالٍ أَقْرَبُ إِلَى الْهِدَايَةِ مِنْ غَيْرِهِ ، وَرُبَّمَا بِنُزُولِ الْكِتَابِ يَزْدَادُ هُدًى ، وَأَمَّا مَنْ لَمْ تَسْبِقْ لَهُ صِلَةٌ مَعَ اللَّهِ ، وَلَمْ يَعْتَنِ بِالرَّسُولِ الْمَبْعُوثِ إِلَيْهِ فَيَكُونُ مُتَهَيِّئًا لِنُزُولِ الْحَدِيدِ الَّذِي فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ، وَقَوْلُنَا أَنَّ هَذَا الصِّنْفَ غَيْرُ مُسْتَعِدٍّ لِنُزُولِ الْكِتَابِ يُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : **خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ** . أَيْ خَتَمَ عَلَيْهَا فَلَا يَصِلُهَا الإِنْذَارُ ، وَلَا يَلْحَقُهَا الإِعْتِبَارُ **وَعَلَى سَمْعِهِمْ** لَا يُصْغُونَ لِلْحَقِّ

كَيْفَمَا كَانَ، وَلَوْ جِئْتَهُمْ بِكُلِّ حُجَّةٍ وَبَيَانٍ، **وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ**، وَالْمُرَادُ بِهَا الْبَصَائِرُ **غِشَاوَةٌ**، أَيْ جِجَابٌ وَغِطَاءٌ، وَهُوَ الْمُعَبَّرُ عَلَيْهِ بِالرَّانِ، فَلَا يُبْصِرُونَ الْحَقَّ أَيْنَمَا كَانَ. **وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** فِي الدُّنْيَا بِالْقَتْلِ وَالسَّبْيِ وَبِمَا لَحِقَهُمْ مِنَ الْهَوَانِ وَضَرْبِ الْجِزْيَةِ، وَفِي الْآخِرَةِ بِالنَّارِ وَبِئْسَ الْقَرَارِ، إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ.

الِاسْتِنْبَاطُ: يُسْتَخْرَجُ مِنْ قَوْلِهِ: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا، إِلَى قَوْلِهِ عَظِيمٌ خَمْسَةُ أَحْكَامٍ:

الْأَوَّلُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْإِنْذَارَ هُوَ صَالِحٌ لِمَنْ فِي قَلْبِهِ وَلَوْ أَدْنَى حُشَاشَةٍ مِنَ الْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ بِالْأَصَالَةِ فَهُوَ أَبْعَدُ مِنْ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ بِمَا خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ وَعَلَى سَمْعِهِ وَعَلَى بَصَرِهِ. بمجرد الترغيب والترهيب الا وكان في قلبه شيء من الايمان

الثَّانِي: عَلِمْنَا بِأَنَّ جَمِيعَ مَنْ دَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ بِمُجَرَّدِ الْإِنْذَارِ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ فِي حَقِّ الْكَافِرِينَ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ. والا لما انتقد

الثَّالِثُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْكُفْرَ وَمَا فِي مَعْنَاهُ هُوَ بِإِرَادَتِهِ تَعَالَى، كَغَيْرِهِ مِنَ الْأَفْعَالِ مِنْ إِسْنَادِهِ تَعَلُّقَ الْفِعْلِ لِنَفْسِهِ فِي قَوْلِهِ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ

وَعَلَى سَمْعِهِمْ إِلَى آخِرِهِ.

الرَّابِعُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْأَبْصَارَ الْمَذْكُورَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى، وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ الْمُرَادُ بِهَا الْبَصَائِرُ، لِأَنَّهَا هِيَ الَّتِي تُدْرَكُ بِهَا الْحَقَائِقُ.

الْخَامِسُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْعَذَابَ الْمُدَّخَرَ لِمَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ هُوَ أَبْعَدُ مِنْ أَنْ يُتَصَوَّرَ فِي الْفِكْرِ مِنْ قَوْلِهِ: وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ..

الْإِشَارَةُ: لَا تُعْتَبَرُ هَذَا الصِّنْفَ الْبَتَّةَ لِأَنَّهُمْ بِمَنْزِلَةِ الْعَوَامِ، إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ إِنَّمَا نُعْتَبَرُ صِنْفًا آخَرَ كَانَ بِالطَّاغُوتِ كَافِرًا، وَبِمَا سِوَى اللَّهِ فِي الْجُمْلَةِ لَا يَرَى مَعَ اللَّهِ سِوَى اللَّهَ خَارِجٌ عَنْ دَائِرَةِ الْإِنْذَارِ وَالتَّبْشِيرِ، لَا يَزْدَادُ إِيمَانُهُ بِتَرْغِيبٍ وَلَا تَرْهِيبٍ، خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ أَنْ يَدْخُلَهَا سِوَاهُ، وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ مِنْ أَنْ تَسْمَعَ أَوْ تَرَى غَيْرَهُ، وَلَهُمْ عَذَابٌ. قَالَ مُحْيِي الدِّينِ بْنُ الْعَرَبِيِّ، هُوَ مِنَ الْعُذُوبَةِ يَعْنِي بِالنَّظَرِ لِلْمُشَارِ إِلَيْهِ.

لِسَانُ الرُّوحِ: بَعْدَمَا تَفَرَّسَ فِي الْكُفْرَانِ وَجَدَهُ مُقَابِلًا لِلْعِيَانِ، وَوَجَدَ الْإِيمَانَ فِي الطَّرَفَيْنِ هَالِكًا، لَوْلَا أَنْ كَانَ مَرْكَزُهُ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ.

التَّفْسِيرُ: وَلَمَّا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْأَصْنَافَ الثَّلَاثَةَ أَعْقَبَهَا بِذِكْرِ

الرَّابِعِ، وَهُوَ أَخْبَثُ سَرِيرَةٍ مِمَّنْ كَفَرَ: **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ**. فِي نَفْسِ الْأَمْرِ إِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ لِيَعْصِمُوا دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَفِي ظَنِّهِمْ **يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا** بِمَا يُظْهِرُونَ مِنَ الْإِيمَانِ، وَيُضْمِرُونَ مِنَ الْكُفْرِ، وَفِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ **وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ**، فَوَبَالُ أَمْرِهِمْ رَاجِعٌ عَلَيْهِمْ **وَمَا يَشْعُرُونَ** بِذَلِكَ، وَيَظُنُّونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا، إِلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ **فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ** أَيْ دَاءٌ مُتَوَطِّنٌ، وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنِ الشُّكُوكِ وَالْوَسَاوِسِ فِي عَقِيدَتِهِمُ السَّالِفَةِ **فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا** بِمَا أَصَابَهُمْ مِنَ التَّكْذِيبِ فِي بِعْثَةِ النَّبِيِّ وَنُزُولِ الْقُرْآنِ، **وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**، أَيْ مُؤْلِمٌ فِي الدُّنْيَا بِالشُّكُوكِ وَالْوَسَاوِسِ وَبِخَسِ الْغَنِيمَةِ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ، وَفِي الْآخِرَةِ بِالدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ. ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ النِّفَاقَ دَاءٌ كَامِنٌ فِي النَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ يَتَوَارَثُ، وَلَنْ تَزَالَ رَاسِخَتُهُ بَيْنَ أَفْرَادِ الْأُمَّةِ تَتَزَايَدُ، وَبِالْأَخَصِّ فِي عَصْرِنَا تَجِدُ الْبَعْضَ مِمَّنْ يَنْتَسِبُ إِلَى الْإِسْلَامِ مُهْمَا تَغَذَّى مِنْ لَبَنِ الْأَجَانِبِ، وَلَوْ سَرَى أَدْنَى شَوْطٍ فِي

تَرْبِيَتِهِمْ يَظْهَرُ فِيهِ وَصْفُ مَنْ تَقَدَّمَ سَوَاءً بِسَوَاءٍ، تَجِدُهُ مُتَزَيِّيًا بِزِيِّ الْمُسْلِمِينَ ظَاهِرًا فِي الصُّورَةِ، وَيُخْفِي فِي بَاطِنِهِ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ، وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ، تَجِدُهُ يَقْتَرِحُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَعَلَى عَقَائِدِهِمْ وَعَوَائِدِهِمْ كُلَّ الِاقْتِرَاحِ وَيَذْكُرُ مِنْ كُلِّ مَنْ عَدَاهُمْ بِوَصْفٍ حَمِيدٍ، وَيَزْعُمُ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ غَيْرَتِهِ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، وَيَدَّعِي أَنَّ الْإِسْلَامَ هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ أَخْلَاقٍ شَرِيفَةٍ، وَهَذَا مِنَ الْمُحْتَمَلِ صِدْقُهُ إِنْ وَجَدْنَاهُ عَامِلًا بِسُنَنِ الْإِسْلَامِ، لِأَنَّ الْإِسْلَامَ لَيْسَ هُوَ مُجَرَّدُ كَلَامٍ. الصِّنْفُ الثَّانِي هُوَ أَخْبَثُ طَوِيَّةً مِنَ الْأَوَّلِ، تُؤَدِّيهِ قَرِيحَتُهُ الذَّمِيمَةُ وَجَرَاءَتُهُ الْوَخِيمَةُ إِلَى إِلْقَاءِ الشُّكُوكِ وَالْوَسَاوِسِ بَيْنَ عَوَامِّ الْمُسْلِمِينَ بِمَا يُبْدِيهِ مِنَ الشُّبَهِ فِي كِتَابِ اللَّهِ، وَيَزْعُمُ أَنَّهُ يَبْحَثُ عَنْ وَجْهِ التَّطَابُقِ بَيْنَ الْمُتَنَاقِضَيْنِ بَعْدَمَا يُبَرْهِنُ عَنْ وُجُودِهِ، وَيُرِيدُ أَنْ يَعْرِفَ مَا هِيَ الْحِكْمَةُ فِي صَوْمِ رَمَضَانَ وَفِي الصَّلَاةِ، وَهَكَذَا فِي سَائِرِ الْعِبَادَاتِ، لِيَعْمَلَ وَهُوَ عَلَى بَصِيرَةٍ وَالْحَالَةُ أَنَّهُ يُحَرِّضُ حِزْبَهُ أَنْ لَا يَعْمَلَ، فَوُجُودُ هَؤُلَاءِ أَدْهَى وَأَمَرُّ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ وُجُودِ الْمُنَافِقِينَ الْأَوَّلِينَ لِوُجُودِ فَسَادِهِمْ فِي الدِّينِ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ** بِإِظْهَارِ الشُّبَهِ فِي دِينِ اللَّهِ

وَاتَّقُوا اللَّهَ مِنَ الفَسَادِ **قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ** بِمَا نُرِيدُ مِنَ البَحْثِ لِنَكُونَ مِنَ الدِّينِ عَلَى بَصِيرَةٍ، وَهَذَا مِنَ الصَّلَاحِ فِي أَقْصَى غَايَتِهِ. قَالَ تَعَالَى: «**أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ**» عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ **وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ** بِفَسَادِهِمْ لِمَا يَعْتَقِدُونَهُ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْحَذَاقَةِ وَالذَّوْقِ السَّلِيمِ، وَإِنَّهُمْ أَرْسَخُ قَدَمًا فِي مَقَامِهِمْ لَا يَرْجِعُونَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ**» أَيِ الْمُسْلِمُونَ، وَادْخُلُوا بِقُلُوبِكُمْ فِيمَا دَخَلُوا وَاعْمَلُوا بِجَوَارِحِكُمْ مَا عَمِلُوهُ، وَفَوِّضُوا مَا وَرَاءَ ذَلِكَ لِلَّهِ **قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ**، أَيْ أَتُرِيدُونَ مِنَّا أَنْ نُؤْمِنَ إِيمَانَ هَؤُلَاءِ السُّفَهَاءِ ضُعَفَاءِ الرَّأْيِ لِأَنَّهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّ مَا عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ هُوَ مِنَ السَّفَاهَةِ وَضَعْفِ الرَّأْيِ فَرَدَّ عَلَيْهِمْ تَعَالَى فَقَالَ: «**أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ**» فِي تَصَرُّفِهِمْ حَيْثُ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى «**وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ**» سَفَاهَتَهُمْ لِظَنِّهِمْ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى وَصْفًا آخَرَ مِنْ أَوْصَافِهِمْ فَقَالَ: «**وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا**» الْإِيمَانَ الْكَامِلَ «**قَالُوا آمَنَّا**» أَيْ يَتَظَاهَرُونَ لَهُمْ بِالْإِيمَانِ وَيَقْصِدُ الصَّلَاحَ فِي الدِّينِ، وَأَنَّ جَمِيعَ مَا ظَهَرَ مِنْهُمْ لَيْسَ هُوَ إِلَّا

غِبْطَةٌ فِي الدِّينِ شَفَقَةً عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ «وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ» وَانْفَرَدُوا بِهِمْ، وَهُمْ أَهْلُ الْكُفْرِ الصَّرِيحِ يَلُومُونَهُمْ عَلَىٰ مُقَالَتِهِمْ ذَلِكَ، وَعَنْ بَقَاءِ وَصْلَتِهِمْ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، وَسَأَلُوهُمْ عَنْ مَاهِيَ وِجْهَتُهُمْ فِي ذَلِكَ «قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ» بِالْمُسْلِمِينَ وَمَا حَمَلَنَا عَلَى مُوَاصَلَتِهِمْ إِلَّا مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ مِنَ الْعَلَائِقِ وَالرَّوَابِطِ «اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ» الْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، وَمِنِ اسْتِهْزَائِهِ بِهِمْ أَنْ يُمْهِلَهُمْ وَيَتْرُكَهُمْ «وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ» أَيْ يَتَرَدَّدُونَ وَلَا يُعْبَأُ بِهِمْ لِأَنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا «أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ» أَيِ اسْتَبْدَلُوا الرُّشْدَ بِالْغَيِّ، وَالْعِزَّ بِالذُّلِّ، وَالْإِيمَانَ بِالْكُفْرِ، «فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ» وَبِئْسَ مَا فَعَلُوهُ «وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ» فِي تَصَرُّفِهِمْ هَذَا، ثُمَّ ضَرَبَ اللَّهُ لَهُمْ مَثَلًا فِي سُوءِ التَّصَرُّفِ فَقَالَ: «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا» لِيَسْتَضِيءَ لَهُ بِهَا سَبِيلُ الْهُدَىٰ، وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ تَمَسُّكِهِمْ بِأَوَّلِ جُزْءٍ مِنَ الْإِسْلَامِ كَكَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ الظَّاهِرِ «فَلَمَّا أَضَاءَتْ» لَهُ تِلْكَ النَّارُ الْمُوقَدَةُ «مَا حَوْلَهُ» بِأَنْ أَوْضَحَتْ لَهُ

مَا يَتَّقِيهِ وَمَا يَفْعَلُهُ ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ أَيْ بِحَظِّهِمْ مِنْ نُورِ تِلْكَ النَّارِ لَا بِنُورِ النَّارِ، فَهِيَ لَنْ تَزَالَ نُورًا عَلَى نُورٍ، وَلِهَذَا لَمْ يَقُلْ تَعَالَى ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهَا بَلْ ذَهَبَ بِنُورِهِمْ، ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ شَيْئًا مِمَّا كَانُوا يُبْصِرُونَهُ بِسَبَبِ تَلَفُّظِهِمْ بِكَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ، لِأَنَّ نُورَهَا لَا يَدُومُ إِلَّا بِمُوَافَقَةِ اللَّفْظِ الِاعْتِقَادَ، وَحَيْثُ لَمْ يُوَافِقْ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ ﴿صُمٌّ﴾ عَنِ اسْتِمَاعِ الْحَقِّ عَلَى أَيِّ لِسَانٍ بَرَزَ، ﴿بُكْمٌ﴾ عَنِ النُّطْقِ بِهِ ﴿عُمْيٌ﴾ عَنْ سُلُوكِ سَبِيلِ الرَّشَادِ، وَلَمَّا كَانَ الْأَعْمَى قَدْ يَنْقَادُ لِمَنْ يَقُودُهُ نَفَى عَنْهُمْ تَعَالَى الِانْقِيَادَ مُبَالَغَةً فِي تَمَرُّدِهِمْ فَقَالَ: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ مِنْ غَيِّهِمْ، وَبِهَذَا عَلِمْنَا أَنَّ عَمَى الْقَلْبِ أَشَدُّ مِنَ الْبَصَرِ. وَلَمَّا كَانَ فِي الطَّائِفَةِ أَصْنَافٌ ذَكَرَهُمُ اللَّهُ بِمِثَالٍ آخَرَ فَقَالَ: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أَيْ أَوْ مَثَلُهُمْ كَصَاحِبِ صَيِّبٍ، أَيْ مَطَرٍ مِنَ السَّمَاءِ، وَهُوَ تَشْبِيهٌ فِي نُزُولِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ وَوُقُوعِهِ عَلَى الْقُلُوبِ، فَقَدْ يَنْفَعُهَا كَمَا يَنْفَعُ الْمَطَرُ الْأَرْضَ الْخِصْبَةَ، وَفِي ذَلِكَ الْمَطَرِ النَّازِلِ مِنَ السَّمَاءِ ﴿فِيهِ ظُلُمَاتٌ﴾ وَهُوَ عِبَارَةٌ عَمَّا اسْتَشْكَلُوهُ مِنْ مُتَشَابِهِ الْقُرْآنِ ﴿وَرَعْدٌ﴾ وَهُوَ عِبَارَةٌ

عَمَّا هَدَّدَهُمْ القُرْآنُ بِهِ مِنَ الزَّوَاجِرِ وَالوَعِيدِ، **وَبَرْقٌ**، عِبَارَةٌ عَنْ لَمَعَانِ بَرَاهِينِهِ البَيِّنَاتِ، وَحُجَجِهِ الوَاضِحَاتِ، وَبِمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ التَّهْدِيدَاتِ **(يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ)** عِبَارَةٌ عَنْ إِعْرَاضِهِمْ بِقُلُوبِهِمْ، لِئَلَّا يُؤَثِّرَ فِيهَا شَيْءٌ **(مِنَ الصَّوَاعِقِ)**، أَيِ الزَّوَاجِرِ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ **حَذَرَ** أَيْ خَشْيَةَ **المَوْتِ**، لِعِلْمِهِمْ أَنَّ كُلَّ مَنْ فَتَحَ سَمْعَهُ لِلْقُرْآنِ العَظِيمِ انْقَادَ وَانْطَرَحَ بَيْنَ يَدَيِ المُصْطَفَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَأَنَّهُ مَيِّتٌ لِأَنَّ الإِسْلَامَ يَقْضِي بِمَوْتِ النُّفُوسِ وَإِبْطَالِ شَهَوَاتِهَا البَهِيمِيَّةِ، وَالمُنَافِقُونَ لَا يَرْضَوْنَ بِذَلِكَ، **وَاللَّهُ**، الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، **مُحِيطٌ بِهِمْ** وَبِالكَافِرِينَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِوَقْتٍ مَعْلُومٍ، وَمِنْ سُوءِ حَظِّهِمْ قَدْ يَظْهَرُ لَهُمْ شَيْءٌ وَتَغِيبُ عَنْهُمْ أَشْيَاءُ وَهُوَ قَوْلُهُ: **(يَكَادُ البَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ)**، أَيْ تَقْرُبُ لَمَعَانُ بَرَاهِينِ القُرْآنِ العَظِيمِ أَنْ تَجْنَحَ بِأَبْصَارِهِمْ لِرُؤْيَةِ الحَقِّ بِدُونِ اخْتِيَارٍ مِنْهُمْ لِوُضُوحِ دَلَائِلِهِ **مَشَوْا فِيهِ** خُطُوَاتٍ فِي سَبِيلِ الهُدَى وَطَلَبِ الحَقِّ **وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا**، أَيْ وَقَفُوا وَنَكَسُوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ، وَتَرَدَّدُوا فِي مُعْتَقَدِهِمْ **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ** هِدَايَتَهُمْ **لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ**

إِلَى رُؤْيَةِ الْحَقِّ وَاسْتِمَاعِهِ **إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**. أَيْ فَلَا يَعْجِزُهُ إِضْلَالُ الْمُهْتَدِي وَلَا هِدَايَةُ الْمُضِلِّ.

الِاسْتِنْبَاطُ: يُسْتَخْرَجُ مِنْ قَوْلِهِ وَمِنَ النَّاسِ إِلَى قَوْلِهِ قَدِيرٌ سَبْعَةَ عَشَرَ حُكْمًا:

الْأَوَّلُ: عَلِمْنَا بِأَنَّهُ تَعَالَى يُرِيدُ مِنَ الدَّاعِي إِلَيْهِ التَّنْصِيصَ عَنْ وُجُودِ الْمُفْسِدِينَ بِذِكْرِ صِفَتِهِمْ مُبْهَمَةً، لَا وَجْهِ التَّعْيِينِ الشَّخْصِيِّ، تَغْلِيبًا لِجَانِبِ السَّتْرِ عَلَى الْفَضِيحَةِ مِنْ قَوْلِهِ: وَمِنَ النَّاسِ إِلَى آخِرِهِ، وَهُوَ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى تَعْيِينِ الْقَائِلِ بِعَيْنِهِ، وَكُلُّ ذَلِكَ تَفَضُّلٌ وَرَحْمَةٌ مِنْهُ بِخَلْقِهِ.

الثَّانِي: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْمُنَافِقِينَ مَا حَمَلَهُمْ عَلَى النِّفَاقِ فِي الْغَالِبِ إِلَّا الطَّمَعُ، يَفْعَلُونَ ذَلِكَ لِيَتَوَصَّلُوا لِبَعْضِ أَغْرَاضِهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِ: يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا.

الثَّالِثُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْمُنَافِقَ كَيْفَمَا كَانَ كَيْدُهُ إِلَّا وَهُوَ رَاجِعٌ عَلَيْهِ، فَكُلٌّ يُعَامِلُهُ اللَّهُ بِقَصْدِهِ مِنْ قَوْلِهِ: **وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ**.

الرَّابِعُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْمُنَافِقِينَ كَانَتْ لَهُمْ أَمْرَاضٌ قَلْبِيَّةٌ مِنَ الشُّكُوكِ

وَالْوَسَاوِسِ قَبْلَ اجْتِمَاعِهِمْ بِالنَّبِيِّ وَإِنْ كَانُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ ، وَلَمَّا جَاءَ الإِسْلَامُ زَادَهُمْ مَرَضًا عَلَى مَرَضٍ ، مِنْ قَوْلِهِ : فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا .

الخَامِسُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ فِي المُؤْمِنِينَ مَنْ كَانَ لَهُ إِطِّلَاعٌ عَنِ المُنَافِقِينَ بِأَشْخَاصِهِمْ وَقَدْ كَانَ يَنْصَحُ لَهُمْ فِي السِّرِ ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ، مِنْ قَوْلِهِ : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ ، وَمِنَ المَعْلُومِ أَنَّهُ قَوْلُ بَعْضِ المُؤْمِنِينَ لَهُمْ عَلَى مَا يَتَضَمَّنُهُ جَوَابُهُمْ .

السَّادِسُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ القَائِلَ الثَّانِي لَهُمُ المَأْخُوذُ مِنْ قَوْلِهِ : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا هُوَ فِي الغَالِبِ مِنْ غَيْرِ المُؤْمِنِينَ ، كَأَنْ يَقُولَ لَهُمُ الكَافِرُ حَيْثُ أَنَّكُمْ تُوَاصِلُونَ المُسْلِمِينَ آمِنُوا إِيمَانَهُمْ ، وَإِلَّا لَمَا اسْتَطَاعُوا مُوَاجَهَةَ المُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِمْ : أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ .

السَّابِعُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ المُنَافِقِينَ كَانَتْ تَخْرُصُ أَلْسِنَتُهُمْ بِحَضْرَةِ المُؤْمِنِينَ الإِيمَانَ الخَالِصَ لِرَبِّ العَالَمِينَ ، مِنْ قَوْلِهِ : وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا .

الثَّامِنُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ قَوْلَ الْمُنَافِقِينَ كَانَ مُتَرَكِّبًا مِنْ صِدْقٍ وَكَذِبٍ، فَقَوْلُهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ كَذِبٌ ، وَقَوْلُهُمْ لِلْكَافِرِينَ إِنَّا مَعَكُمْ صِدْقٌ ، وَلَوْ عَكَسُوا لَكَانَ حُكْمًا آخَرَ ، وَلَا يَكُونُ الْإِيمَانُ إِيمَانًا إِلَّا إِذَا ارْتَبَطَ الْقَلْبُ بِاللِّسَانِ .

التَّاسِعُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ الْأَلْفَاظَ الَّتِي لَا تَجُوزُ نِسْبَتُهَا لِلَّهِ ، كَالِاسْتِهْزَاءِ وَنَحْوِهِ تُطْلَقُ عَلَيْهِ فِي كِتَابِهِ عَلَى طَرِيقَةِ الْمُشَاكَلَةِ ، مِنْ قَوْلِهِ : اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ .

الْعَاشِرُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ الْمُرَادَ بِالِاسْتِهْزَاءِ هُوَ أَنْ يَمُدَّ اللَّهُ فِي عُمُرِ الْمُسْتَهْزَئِ بِهِ بِحَيْثُ لَا يَعْبَأُ بِهِ ، مِنْ قَوْلِهِ : وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ .

الْحَادِي عَشَرَ : عَلِمْنَا بِأَنَّ النِّفَاقَ هُوَ تِجَارَةٌ مَعْدُومَةُ النَّتِيجَةِ أَيْ لَا يَتَوَصَّلُ بِهِ الْمُنَافِقُ لِغَرَضِهِ ، مِنْ قَوْلِهِ : فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ .

الثَّانِي عَشَرَ : عَلِمْنَا بِأَنَّ الْأَمْثَالَ الْمَضْرُوبَةَ لِلسَّامِعِينَ هِيَ أَسْرَعُ فِي وُصُولِ الْمَعَانِي لِلْأَذْهَانِ ، وَإِنَّهَا مِنْ أَنْوَاعِ الْبَيَانِ الَّذِي يَزِيدُ فِي الْحَقِّ وُضُوحًا ، وَإِلَّا لَمَا اسْتَجْلَبَهَا تَعَالَى فِي مَعْرِضِ كَلَامِهِ ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ : مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا .. إِلَى آخِرِهِ .

الثَّالِثُ عَشَرَ : عَلِمْنَا بِأَنَّ الإِقْرَارَ بِمُجَرَّدِ اللِّسَانِ هُوَ عَلَى كُلِّ حَالٍ نُورٌ لَكِنْ لَا يَمْتَدُّ ضِيَاؤُهُ إِلَّا إِذَا اتَّصَلَ بِالْجَنَانِ ، وَإِنْ لَمْ يَتَّصِلْ عَلَى الْفَوْرِ يَكُنْ سَرِيعَ الزَّوَالِ ، وَتَعْقُبُهُ ظُلْمَةٌ أَشَدُّ مِنْ ذِي قَبْلُ، مِنْ قَوْلِهِ : كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ، وَلَا شَكَّ أَنَّهَا عِبَارَةٌ عَنِ النُّطْقِ بِكَلِمَةِ الإِخْلَاصِ .

الرَّابِعُ عَشَرَ : عَلِمْنَا بِأَنَّ الْمُصَابَ بِدَاءِ النِّفَاقِ لَا يَتَأَتَّى رُجُوعُهُ لِلْحَقِّ فِي الْغَالِبِ ، فَيَكُونُ رُجُوعُهُ أَبْعَدَ مِنَ التَّظَاهُرِ بِالْكُفْرِ ، مِنْ قَوْلِهِ: فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ

الْخَامِسُ عَشَرَ : عَلِمْنَا بِأَنَّ فِي الْمُنَافِقِينَ أَصْنَافًا ، وَذَلِكَ يُؤْخَذُ مِنْ تَلْوِينِهِ الْمِثَالَ بِقَوْلِهِ : أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ .

السَّادِسُ عَشَرَ : عَلِمْنَا بِأَنَّ الْكُفْرَ هُوَ أَعَمُّ مِنَ النِّفَاقِ ، فَكُلُّ مُنَافِقٍ كَافِرٌ وَلَا عَكْسَ ، مِنْ قَوْلِهِ عَقِبَ ذِكْرِ الْمُنَافِقِينَ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ .

السَّابِعُ عَشَرَ : عَلِمْنَا بِأَنَّ الْمُنَافِقِينَ قَدْ كَانَتْ تَقْدَحُ فِي بَوَاطِنِهِمْ مِنْ أَشِعَّةِ الإِيمَانِ أَحْيَانًا بِسَبَبِ مُجَالَسَتِهِمْ لِلنَّبِيِّ ، غَيْرَ أَنَّهَا سَرِيعَةُ الِانْقِلَابِ مِنْ قَوْلِهِ: كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ .

الإِشَارَةُ : لَا تَحْصُرِ النِّفَاقَ فِي الصِّنْفِ السَّابِقِ ، وَلَا تَعْتَبِرْ صَاحِبَهُ لِسُقُوطِهِ

مِنْ عَيْنِ اللَّهِ وَدُخُولِهِ فِي حَيِّزِ الْكُفْرِ، إِنَّمَا تَعْتَبِرُ فُرُوعَهُ الْكَامِنَةَ فِي أَهْلِ الْمُعَبَّرِ عَلَى صَاحِبِهَا فِي لِسَانِ الشَّرْعِ بِذِي الْوَجْهَيْنِ، كَمَا أَنَّهَا لَا تَعْتَبِرُ الشِّرْكَ الصَّرِيحَ، إِنَّمَا تَعْتَبِرُ فُرُوعَهُ أَيِ الشِّرْكَ الْمُؤَوَّلَ، الْمُشَارَ لَهُ فِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ بِقَوْلِهِ: الشِّرْكُ فِي أُمَّتِي أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ عَلَى الصَّخْرَةِ الصَّمَّاءِ، وَقَدْ يُعَبِّرُونَ عَنْهُ بِشِرْكِ الْأَعْرَاضِ، وَعَلَى هَذَا يَكُونُ الْمُنَافِقُ فِي مَقَامِ الْإِحْسَانِ مُسْلِمًا بِخِلَافِهِ فِي مَقَامِ الْإِسْلَامِ فَإِنَّهُ كَافِرٌ لِأَنَّ الْعِبْرَةَ بِالضَّمَائِرِ، وَقَوْلُنَا فِي الْأَوَّلِ مُسْلِمٌ، أَيْ لَنْ يَحْكُمَ لَهُ بِالْإِحْسَانِ الْمُتَرَبِّي بِهِ ظَاهِرًا، ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ هَذَا الصِّنْفَ هُوَ الْمُتَرَدِّدُ بَيْنَ أَهْلِ اللَّهِ وَبَيْنَ مَنْ يُنْكِرُ سِرَّ الْخُصُوصِيَّةِ فِي الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، كَالْقَدَرِيَّةِ وَمَنْ نَحَا نَحْوَهُمْ مِمَّنْ يَدَّعِي السُّنَّةَ، وَبَيَانُ قَوْلِهِمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ لَيْسَ فِي الشَّرْعِ إِلَّا مَا وَصَلَ إِلَيْنَا مِنْ جِهَةِ الظَّوَاهِرِ، وَيُنْكِرُونَ مَا تَدَّعِيهِ الْقَوْمُ فِي جَمِيعِ مَعْلُومَاتِهِمْ، وَلَوْ كَانَ هَذَا الْفَرِيقُ كَافِرًا بِسِرِّ الْخُصُوصِيَّةِ كَانَ الْمُتَرَدِّدُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِ اللَّهِ الْمُتَظَاهِرِ لِكُلِّ فَرِيقٍ بِمَا يَسْتَحْسِنُهُ مُنَافِقًا بِهَذَا الِاعْتِبَارِ وَالَّذِي يَدُلُّكَ عَلَى أَنَّهُمْ جَحَدُوا مَا يَقْرُبُ أَنْ يُعْرَفَ مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ

هُوَ قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: إِنَّ مِنَ الْعِلْمِ كَهَيْئَةِ الْمَكْنُونِ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا الْعُلَمَاءُ بِاللَّهِ، فَإِذَا أَظْهَرُوهُ أَنْكَرَتْهُ أَهْلُ الْغِرَّةِ بِاللَّهِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي صَدْرِ الْكِتَابِ مَا يُغْنِي عَنِ الْإِطْنَابِ، وَبِمَا اعْتَادَهُ هَذَا الْفَرِيقُ مِنَ الْكُفْرِ لِهَذِهِ النِّعْمَةِ تَعَيَّنَ الْإِسْتِتَارُ وَكِتْمَانُ الْأَسْرَارِ، وَقَدْ نَصَّ الْقَوْمُ عَلَى عَدَمِ جَوَازِ التَّكَلُّمِ بِمَا خَفِيَ مِنَ الْأَسْرَارِ إِلَّا مَعَ أَهْلِهَا عَمَلًا بِالْحَدِيثِ. قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذِّبُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ. نَقَلَهُ فِي الْجَامِعِ الصَّغِيرِ. وَقَالَ أَيْضًا: مَا أَنْتَ مُحَدِّثٌ قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إِلَّا كَانَ عَلَى بَعْضِهِمْ فِتْنَةً. وَعَنِ ابْنِ الطُّفَيْلِ قَالَ: سَمِعْتُ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ: أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَالرَّسُولُ، لَا تُحَدِّثُوا النَّاسَ إِلَّا بِمَا يَعْلَمُونَ

وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ قَوْلُ الْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

خَاطِبِ النَّاسَ بِالَّذِي أَلِفُوهُ ... وَتَجَنَّبْ خِلَافَ مَا أَلِفُوهُ

إِنَّ فِي الْجَاهِلِينَ غَوْرًا عَظِيمًا ... لَوْ يَرَوْنَ التَّحْقِيقَ مَا عَرَفُوهُ

مَنْ نَهَاهُمْ عَنْ غَيِّهِمْ وَهَوَاهُمْ ... رَمَوْهُ بِالزُّورِ وَتَلَفُوهُ

تَجَهَّلْ مَعَ الْجُهَّالِ وَسَلِّمْ ... لَهُمْ فِي الْمُحَالِ مُذْ مَدَحُوهُ

فَإِذَا كُنْتَ مُبْصِرًا عِنْدَ أَعْمَى ... فَاكْتُمِ الْحَقَّ حَيْثُ لَمْ يَعْرِفُوهُ

ثُمَّ إِنِّي مَهْمَا ذَكَرْتُ مِثْلَ هَذَا الْفَرِيقِ بِالْكُفْرِ فَلَا نَعْنِي بِهِ إِلَّا الْكُفْرَ الْأَصْغَرَ كَمَا تَقَدَّمَ فِي النِّفَاقِ وَالشِّرْكِ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ مِنْ إِطْلَاقِ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِ كَقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: قِتَالُ الْمُؤْمِنِ كُفْرٌ، وَسِبَابُهُ فُسُوقٌ، وَكَقَوْلِهِ: مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ. وَعَلَى هَذَا فَلَا تُهْمَةَ فِي تَعْبِيرِنَا عَنِ الْبَعْضِ مِنْ عُمُومِ أَهْلِ الْقِبْلَةِ بِالْكُفْرِ وَالشِّرْكِ وَنَحْوِهِ، فَلِكُلِّ مَقَامٍ كَلَامٌ وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ: حَسَنَاتُ الْأَبْرَارِ سَيِّئَاتُ الْمُقَرَّبِينَ، وَإِذَا صَحَّ هَذَا. فَلَا مَحْظُورَ فِي إِطْلَاقِنَا الْكُفْرَ عَلَى مَنْ نَفَى الْخُصُوصِيَّةَ بَيْنَ الْأَئِمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ وَإِطْلَاقِنَا النِّفَاقَ عَلَى الْمُتَظَاهِرِ لِأَهْلِ اللَّهِ بِخِلَافِ مَا يُضْمِرُهُ فِيهِمْ، وَلَعَلَّكَ تَقُولُ مَنْ يُنْكِرُ ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ اللَّهِ وَالْحَقُّ يَقُولُ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ الْقُدْسِيَّةِ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَلَوْلَا تَكْذِيبُهُمْ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ لَمَا قَالَ الذَّهَبِيُّ فِي ابْنِ الْفَارِضِ يَنْعِقُ بِالْإِتِّحَادِ الصَّرِيحِ. وَقَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ فِي ابْنِ الْعَرَبِيِّ الْحَاتِمِيِّ بِالْكُفْرِ الصَّرِيحِ. وَقَالَ فِيهِ إِبْرَاهِيمُ الْجَعْبَرِيُّ: هُوَ شَيْخٌ نَجِسٌ يُكَذِّبُ بِكُلِّ كِتَابٍ. وَقَالَ فِيهِ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ السَّلَامِ: هُوَ شَيْخٌ

سُوءٍ مَقْبُوحٌ، وَقَالَ قَاضِي الْجَمَاعَةِ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ فِي ابْنِ سَبْعِينَ وَابْنِ الْفَارِضِ، وَأَبِي فَارِسِي، وَابْنِ مَرْجَانَةَ، وَالْعَفِيفِ التِّلِمْسَانِي. وَنَقَلَ الْقُشَيْرِي عَنْ فَارِسَ الصُّوفِي أَنَّهُ قَالَ فِي الْغَزَالِي: مَثَلُهُ كَحَاطِبِ اللَّيْلِ، يَجْمَعُ فِيمَا يَحْطِبُ الْحَيَّاتِ وَالْعَقَارِبَ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ. وَقَالَ فِي الْجُنَيْدِ بِالْجَهْلِ الْمُرَكَّبِ، وَفِي الشَّيْخِ عَبْدِ الْقَادِرِ بِالتَّخَبُّطِ فِي كَلَامِهِ، وَقَالَ فِي ابْنِ الْفَارِضِ بِالْكُفْرِ وَالْإِلْحَادِ وَمِنْ هَذَا الْكَلَامِ مَا يَفُوقُ الْحَصْرَ، وَمَنْ أَرَادَ الِاسْتِطْلَاعَ عَلَى أَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَلْيَنْظُرِ الْكِتَابَ الْمُسَمَّى بِالْعَالَمِ الشَّامِخِ فِي إِيثَارِ الْحَقِّ عَلَى الْآبَاءِ وَالْمَشَايِخِ، فَقَدْ جَمَعَ فِيهِ صَاحِبُهُ مَا يَقْضِي بِسُقُوطِهِ مِنْ عَيْنِ اللَّهِ هُوَ وَمَنْ عَلَى شَاكِلَتِهِ، إِنْ لَمْ يَتَدَارَكْهُمُ اللَّهُ بِلُطْفِهِ، وَمَا ذَكَرْتُ هَذِهِ الْجُمْلَةَ إِلَّا اسْتِدْلَالًا عَلَى بَقَاءِ هَذِهِ الطَّائِفَةِ بَيْنَ أَفْرَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَبِهَذِهِ الْمُنَاسَبَةِ يَصِحُّ التَّطَابُقُ فِي جَمِيعِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ فِي الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ عَلَى الصِّنْفَيْنِ الْمُشَارِ لَهُمُ الْآنَ وَلَوْلَا خَشْيَةُ التَّطْوِيلِ لَتَتَبَّعْنَا ذَلِكَ، فَتَجِدُ الْمَعْنَى شَمَلَتْ بِكِلَيْهِمَا سَوَاءً بِسَوَاءٍ، وَمَقَامُهُمْ حَيْثُ أَقَامَهُمْ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِلَى رُؤْيَةِ الْحَقِّ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ

وَقَدْ ضَرَبَ اللَّهُ تَعَالَى مَثَلاً لِلْمُتَرَدِّدِينَ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ لِيَسْتَطْلِعَ عَلَى مَعْلُومَاتِهِمْ، وَيَأْخُذَ قَبَسًا مِنْ مُعْتَقَدَاتِهِمْ، فَقَالَ: مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا، وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنِ الِانْقِيَادِ ظَاهِرًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ بِأَنِ اتَّضَحَ لَهُ مِنَ الْحَقِّ مَا يَسِيرُ عَلَى مِنْوَالِهِ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ أَكْثَرَ مِمَّا كَانُوا عَلَيْهِ قَبْلَ الِانْقِيَادِ، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ عِبَارَةٌ عَلَى إِسْرَارِ الْقَوْمِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَهُوَ غَوَامِضُهُ وَرَعْدٌ عِبَارَةٌ عَنْ سَطْوَتِهِ وَقَهْرِيَّتِهِ فِي الْقُلُوبِ، وَبَرْقٌ عِبَارَةٌ عَنْ ظُهُورِ أَنْوَارِهِ وَلَمَعَانِ أَسْرَارِهِ، وَبِمُوجِبِ مَا تَحَقَّقُوهُ مِنْ أَنَّهُ عَلَى خِلَافِ مَعْلُومَاتِهِمْ وَإِنَّهُ قَاضٍ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالدَّمَارِ، وَإِعْدَامِهَا بِالْمَرَّةِ، يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ، وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ وَبِكُلِّ شَيْءٍ، عَرَفَ الْمُنَافِقُونَ أَمْ جَهِلُوا، يَكَادُ الْبَرْقُ الْمُشَارُ إِلَيْهِ سَابِقًا يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ إِلَى رُؤْيَةِ الْحَقِّ وَمُشَاهَدَتِهِ بِدُونِ اخْتِيَارٍ مِنْهُمْ عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ الظُّهُورُ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ شَيْءٌ مِمَّا يَقْتَضِيهِ التَّوْحِيدُ الْخَاصُّ كَقَوْلِهِمْ: لَا فَاعِلَ إِلَّا اللَّهُ، وَهَذَا مِمَّا يُعْتَبَرُ مَصْدَقُهُ لَوْ تَبَتَّلُوا لَهُ وَتَأَمَّلُوا مَعْنَاهُ، فَهُوَ أَوَّلُ شَرْطٍ

في الفاعل ولم يبق الا ان يلاحظوه

فِي سَبِيلِ الإِحْسَانِ، وَقَدْ عَرَفُوا اللَّهَ فِي وِجْهَةٍ، أَيْ لاَحَظُوهُ فِي المَفْعُولِ، وَلَكِنَّهُ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ مَا عَرَفُوهُ مِنْ أَنَّ لاَ فَاعِلَ إِلاَّ اللَّهُ، مِنْ جِهَةِ مَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَفْعَالِ الْعَبِيدِ، وَلُزُومِ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، فَوَقَفُوا حَيَارَى، وَهُوَ قَوْلُهُ: وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا مُتَرَدِّدِينَ عَنْ مَقَالَتِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ رَجَعَ إِلَى القَدَرِيَّةِ وَقَالَ الْعَبْدُ يَخْلُقُ أَفْعَالَ نَفْسِهِ الإِخْتِيَارِيَّةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَثْبَتَ الأَفْعَالَ الْكَسْبِيَّةَ، وَكُلُّ هَذَا مِنَ التَّحَكُّمَاتِ الْعَقْلِيَّةِ عَلَى مَا اقْتَضَتْهُ الْحِكْمَةُ الأَزَلِيَّةُ مِنْ لُزُومِ الإِسْتِتَارِ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَبِجَمِيعِ صِفَاتِهِمْ وَاسْتَبْدَلَهَا بِصِفَاتِهِ، فَصَارُوا يَسْمَعُونَ بِاللَّهِ، وَيُبْصِرُونَ بِهِ، كَمَا قَالَ لِنَبِيِّهِ أَسْمِعْ بِهِ وَأَبْصِرْ وَإِنْ مَعَ اعْرَاضِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَمِنْ قُدْرَتِهِ الْبَاهِرَةِ وَسَطْوَتِهِ الْقَاهِرَةِ أَنْ احْتَجَبَ فِي ظُهُورِهِ وَظَهَرَ فِي بُطُونِهِ.

لِسَانُ الرُّوحِ: بَعْدَ مَا اسْتَفْسَرْتُهُ فِي دَائِمِ التِّفَاقِ فَوَجَدْتُهُ يُفْهِمُ بِهِ مَا سِوَاهُ عَلَى الإِطْلاَقِ، فَقُلْتُ وَكَيْفَ الْمَفَرُّ، فَقَالَ: إِلاَّ إِذَا عَرَفْتَ الْبَاطِنَ فِي الظَّاهِرِ، وَتَكَلَّمْتَ بِمَا فِي نَفْسِ الأَمْرِ.